ثناء الغربيين

على سيد المرسلين

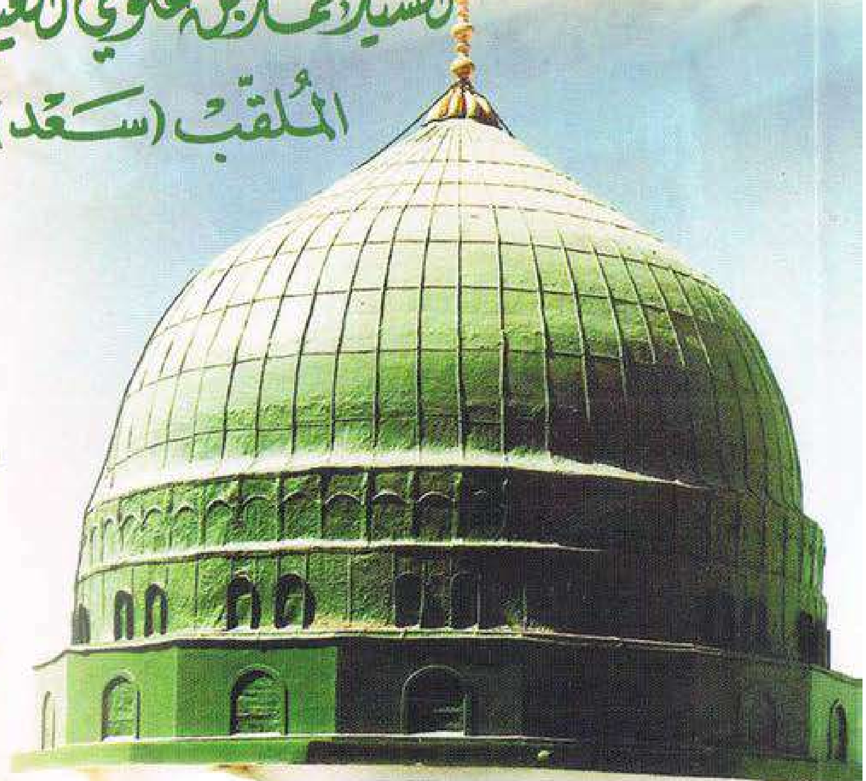
(مواضيع مجمعة من مجلة دعوة الحق)

جمع وترتيب

السيد محمد بن علوي العيدروس

الملقب (سعد)





دار الضياء

للنشر والتوزيع

ثناء الغربيين
على سيد المرسلين

(مواضيع مجمعة من مجلة دعوة الحق)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الضياء للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - ش الحسن البصري - تليفاكس: ٢٦٥٨١٨٠ (٠٠٩٦٥)
البريد الإلكتروني: ilhabeb2000@yahoo.com

ثناء الغربيين

على سيد المرسلين

(مواضيع مجمعة من مجلة دعوة الحق)

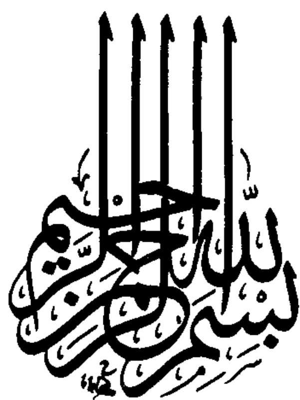
جمع وترتيب

السيد محمد بن علوي العيدروس

الملقب (سعد)

دار الضياء

للنشر والتوزيع



سيدنا محمد ﷺ
في كتابات الغرب وعيون المستشرقين

من يتأمل حياة رسول الله ﷺ فإنه يرى فيها كل مقومات العظمة والسمو والخلق الرفيع والفضائل في أجمل صورها، كما تتجلى في شخصيته ﷺ الإنسانية التي يفيض بها قلبه الكبير، والقدوة الصالحة لكل من ينشد المثل العليا في الحياة.

وإذا كانت هذه نظرتنا إلى رسول الله ﷺ كأتباع يؤمنون به وبرسالته ويعيشون على هديه ويترسمون طريقه، فإن كثيراً من المستشرقين ممن تعمقوا في دراسة الإسلام وتأثيره ومبادئه السامية، قد أنصفوا رسول الله ﷺ الذي بدت صورته أكثر إشراقاً وإنصافاً من دارسي حياة النبي ﷺ ودعوته بالحيدة والموضوعية.

وتكاثرت كتابات مفكري ومستشرقي الغرب حول شخصية (سيدنا محمد ﷺ) ودعوته مع بدايات القرن التاسع عشر، وبعد أن اتسمت الكتابات السابقة على هذا التاريخ بالتحيز والتجني، ربما لقلة المعلومات في ذلك الوقت وما روجته الحروب الصليبية عن الشرق المسلم.

وبتنشيط حركة الترجمة والتأليف في القرن التاسع عشر عن الرسالة المحمدية ورسول الله ﷺ أصبح في إمكان حتى غير المتخصصين. . الإطلاع على حياة رسول الله ﷺ ورسالته، وظهرت كتابات عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وتأخذ شكلاً أكثر إنصافاً وموضوعية.

○ لا يتصورون ما يقولون:

وتعد كتابات الفيلسوف والمؤرخ توماس كارليل نموذجاً صادقاً لكتابات القرن التاسع عشر المنصفة للرسالة ولصاحبها ﷺ حتى أن المفكر الكبير عباس محمود العقاد قال عنها: «لا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيراً منها عن نبي الإسلام، ويكفي للدلالة من موقف كارليل أنه أراد أن يختار مثلاً واحداً للبطولة في صورة النبي ﷺ فلم يجد أحق في هذا المقام من سيدنا محمد ﷺ وكان كل همه أن يفند كل شبهة شائعة عن الدعوة الإسلامية في مبادئها فقال: «إن الذين يزعمون أن محمد نشر دعوته بالسيف لا يتصورن ما يقولون!! فقد كانت **دعوة محمد دعوة رجل واحد** أمام قوم مجمعين على تكذيبه، وليس أعجب من صورة رجل واحد يحمل السيف يقنع به كل منكريه».

○ السراج المنير:

ويقول المؤرخ الإنجليزي توماس كارليل: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خدّاع ومزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ﷺ ما زالت وستظل السراج المنير»، ويقول: «إن هذا الرجل العظيم محمد ﷺ فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً فإني أرى الصدق أساسه وأساس ما يتصف به من فضلٍ وَمَحْمَدَه».

○ مثل أعلى:

وكتب المستشرق دكتور بوكيه كتاباً عن الأديان المقارنة قال فيه عن الرسالة والرسول محمد ﷺ: «أنه نشر في الشرق مثلاً أعلى للحكم وللأخلاق الإنسانية أوسع وأنظف وأحدث وأقوى من أمثلة الدول البيزنطية ثم قال: إن الحكم على شخصيته (أي سيدنا محمد ﷺ) أيضاً يتطلب الإنصاف من أولئك الذين ينظرون إليها بعين الفرض، فإن الأخبار التي لا

داعية للشك فيها تصوره لنا صورة رائعة من الجمال بوجه مليح فطن وعينين سوداوين نفاذتين وحجة سابغة ورصانة في القول وبلاغة صارمة مع عطف في أطيب حالاته وحنان مع الأطفال.

○ قدرة خارقة:

وفي كتابه (الإسلام) قال البروفيسور الفريد غليوم أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن عن نبي الإسلام: «علينا من المبتدأ أن نقرر أن محمداً كان واحداً من أعلام التاريخ العظماء وكان يقينه أنه لا إلـه إلا الله، وأنه يدعو إلى ملة واحدة، وكانت قدرته على التدبير بين المشاكل المعقدة التي كانت تواجهه قدرة خارقة بغير مراء فما استطاع عربي بقوة الجيوش والشرطة والدواوين أن يجمع شمل قومه كما فعل إن قَبِلَ أن العالم الإسلامي عند وفاته كان عالماً صغيراً بالقياس إلى دولة خلفائه فالجواب على ذلك: أن عوامل الشقاق جميعها كانت كامنة في بلاد العرب أيام حياته فلم يظهر منها شيء حتى فارق حياته».

○ قرآن عربي مبين:

أما المستشرق الكبير مونتجمري وات صاحب أحد أهم كتب السيرة النبوية في الغرب وهو كتاب (محمد في مكة) و(محمد في المدينة) فقد ظل يدرس الإسلام لأكثر من ثلاثين سنة متواصلة منذ عام ١٩٣٧م قبل أن يصدر كتابه (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر)، قال فيه: «القرآن الكريم ليس بأي حال من الأحوال كلام محمد، ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمداً ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولاً ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربي مبين. . .

وهناك إشارات في القرآن الكريم إلى أنه موجه للجنس البشري قاطبة، وقد تأكد ذلك عملياً بانتشار الإسلام في العالم كله وقبله بشر من مختلف الأجناس تقريباً، وبمرور الوقت لم يعد محمد ﷺ مجرد نذير أو مبلغ رسالة و إنما كان عليه كرسول الله ونبي أنه يوجه بشكل أو بآخر أمر جماعة المسلمين، ويمكن اعتبار فعله هذا مسلكه العلمي أو سنته.

○ الإخاء في الإسلام:

بينما تشير الدكتورة: آيلز ليكتنستارتر في كتابها (الإسلام والعصر الحديث) إلى أهم مفاهيم الرسول ﷺ فتقول: «وفي اعتقاد محمد عليه الصلاة والسلام أن مفهوم الإخاء لم يكن بالهدف الذي يصعب تحقيقه في محيطه بطريقة عملية إذ آخى بالفعل في مكة بين المسلمين الذين لا تربطهم بعضهم البعض رابطة الدم، كما نادى بالتعاون والمساعدة المتبادلة بين المسلمين خارج نطاق القبيلة والأسرة.

وفي المدينة استخدم الإخاء ليربط بين المهاجرين والأنصار، وهذا المفهوم من الإخاء في الإسلام الذي عبر عنه ﷺ في قوله المأثور: «المسلم أخو المسلم»، هذا الدستور الذي وضع محمد ﷺ ما زال أقوى رابطة بين مختلف العناصر التي يتكون فيها المجتمع الإسلامي حتى عصرنا هذا.

○ شمولية الإسلام:

كما أكدت الدكتورة: آيلز في كتابها (الإسلام والعصر الحديث) على شمولية الإسلام فقالت: «كان يهدف إلى وحدة البشرية بالرغم من أن هذه العبارة تضمنت فحسب

ذلك الجانب من البشرية المعروف لمحمد عليه الصلاة والسلام، ولقد قوبل هذا المبدأ في مكة بالفعل بقدر من النجاح بالرغم من أنه كان سبباً من أسباب عداء قريش وأشراف مكة له..».

○ حلف المدينة دستور عملي:

كذلك تؤكد الدكتورة آيلز على قدرة رسول الله ﷺ على معالجة أعقد المشكلات البشرية فتقول: «وفي بيئته الجديدة عالج الرسول عليه الصلاة والسلام موضوعات اجتماعية وسياسية ومشاكل تدخل في نطاق القانون والعدل، وكان يتخذ قرارات فورية في قضايا المنازعات، ولقد كانت مهمته هي أن يوحد بين العناصر التي كان يتألف منها المواطنون في مجتمع واحد، ولقد كانت هذه العناصر هي: الأوس والخزرج، الذين دعوه للإقامة بينهم وسموا بعد ذلك بـ(الأنصار) تقديراً لهم، وكان هناك اليهود والمهاجرون من مكة، وفي حلف المدينة وضع محمد عليه الصلاة والسلام لأمة الإسلام دستوراً عملياً جديراً بالاعتبار لما ينطوي عليه من حكمة إلى اقترابه السليم من المشكلة.

○ نبي يعلو الإنسان رتبة:

الشاعر الفرنسي الكبير الفونس لامارثين الذي طاف بالشرق، كتب عن رسول الله ﷺ بأسلوبه الشعري في كتابه (محمد وهؤلاء) يقول: «ولد محمد ﷺ والإنسانية في صراعات دموية مظلمة ترتكب الإثم وتعبد الأصنام وتنكر الإلـه، وما كان محمداً فقيراً إلى من يحفل به، ولا كانت به حاجة إلى من يمجده، فآثاره الباقية ونعمه الناطقة وشريعته الخالدة على وجه الدهر الدافعة لجبهة الباطل كل أولئك يحتفي بمحمد وينهض منادياً بأن عظمة محمد فوق كل عظمة وأن نفسه أعظم نفس، كأن محمد إلهاً، ولكنه فوق البشر إنه نبي يعلو الإنسان رتبة ويجيىء بعد الإلـه فهو رسول بحكم العقل، ودلالات المعجزات تصدق ذلك، وأن اللغز الذي حله محمد في دعوته يكشف عن القيم الروحية ثم قدمها لأمة الغرب ديناً سماوياً سرعان ما اعتنقوه هو ما رسمه الخالق للبشر».

○ تقدير وتمجيد:

وكتب فولتير زعيم الحركة المادية في كتابه (محمد): «إن في نفس محمد شيئاً عجيباً رائعاً يحمل الإنسان على الإعجاب والتقدير، ولعمري إن الرجل وقف وحده يدعوا

إلى الله ويتحمل الأذى في سبيل هذه الدعوة سنوات عديدة أمام جموع المشركين الذين يعملون جاهدين لمعاكسته وقتل فكرته، إنه يستحق كل تقدير وتمجيد».

○ رفع مستوى المعيشة:

وعن انتشار الإسلام وتعاليم سيدنا محمد ﷺ التي أنشأت حضارة رائعة قال مسيو رايتهات الهولندي: «كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات هي الموسوية، اليسوعية، والوثنية، ثم تحدث عن تأثير دعوته قائلاً: «لقد جاء محمد بتعاليم رفعت مستوى البيئة إلى عالم الكمال».

○ أعظم رسل الله:

وأكد بوسورت سميث في كتابه (محمد والإسلام) استحالة تجاهل سيدنا محمد ﷺ لكونه أعظم رسل الله فذكر: «أن من المستحيل لأي شخص درس حياةَ وشخصية الرسول العظيم وعرف كيف عاش وكيف تعلم غير أن ينحني احتراماً لهذا الرسول المبجل القوي الذي هو واحد من أعظم رسل الله..».

○ الكمال البشري:

ويقول المستشرق الفرنسي هنري دي شامبون عن أمة محمد ﷺ: «إننا مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية، وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى.

○ طريق الرقي والتقدم:

أما تولستوي المفكر الفيلسوف الروسي فيقول: «لا ريب أن هذا الرسول (النبي ﷺ) من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة عظيمة وحكمة وأن رجلاً مثل محمد جدير بالاحترام والإجلال.

○ هزيمة أعظم دولتين:

ويقول صاحب الموسوعة التاريخية «قصة الحضارة» ول ديورانت: «إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا أن محمداً من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يزاحمه فيه مصلح آخر في التاريخ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق ما كان يحلم به من إصلاح.

○ دين المدنية والحضارة:

وقول المؤرخ الكبير: ول ديورانت: «هل في استطاعة إنسان أن يأتيني بدور من الأدوار كان فيه الدين الإسلامي مغايراً للمدنية والتقدم؟! إن محمداً ﷺ هو الذي استطاع في فترة وجيزة أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحرقة سكناً لها، واشتهرت بالشجاعة والأخذ بالثأر واتباع الآباء، ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب

الأمة العربية على أمرها، فمن ذا الذي يشك في القوة الخارقة للعادة التي استطاع بها محمد أن يقهر خصومه هي من عند الله».

○ منقذ البشرية:

وتمنى برناردشو المفكر الأيرلندي الشهير وجود النبي ﷺ في عالمنا الآن لقدرته الفائقة على حل المشكلات التي يعج بها مجتمعنا العالمي فقال: «لقد درست سيرته وأعجبت به ويجب أن نطلق عليه منقذ الإنسانية، وأنه لو عاش في عالمنا المعاصر لحل مشكلاته جميعاً وهو يرتشف فنجانا من القهوة!!».

○ مطلوب من المسلمين:

المستشرقة الألمانية آنا ماري شيمل تقول: «أنها غير قلقة على مستقبل العالم الإسلامي في القرن الجديد لأنه يؤمن بعقيدة راسخة قادرة على إيجاد حلول جذرية للعديد من المشكلات التي تهدد عالمنا المعاصر، وكل ما هو مطلوب من المسلمين هو الفهم الصحيح لهذا الدين العظيم و تطبيقه على حياتهم في معاملتهم مع الآخرين.

وتطالب آنا ماري شيمل المجتمع الغربي بالقراءة المتأنية والموضوعية للإسلام بصرف النظر عن الميراث التاريخي المليء بالحروب الدامية.

○ رحمة للعالمين:

عزيزي القارىء..

وهكذا تأتي شهادة القريب والبعيد المسلم وغير المسلم بأن محمداً ﷺ من يوم مولده إلى يوم انتقاله للرفيق الأعلى كان رحمة للعالمين وآية من آيات الله تعالى، فهذا الوليد اليتيم الذي رغبت المرضعات عن إرضاعه، وأرضعته (حليمة السعدية) فدخلت بفضله من أوسع أبواب التاريخ، والذي عاش ومات أمياً.. وهذا هو سر معجزته!! قد أتى من الإصلاح بما أعجز كل المصلحين.

وقد فترت كل الدعوات أو زال بريقها إلا دعوة التوحيد، فلا تزال على جدتها حية مشرقة تنشر الحق والخير والعدل والسلام بين البشرية قاطبة.

وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩][1].

---

(١) من مجلة الخيصة العدد ٢٩/ السنة السابعة عام ١٤٢٣هـ.

○ أيام العز:

وصلت رسالة إلى خليفة المسلمين في الأندلس أيام التقدم العظيم التي وصلت إليه حضارتنا جاء في هذه الرسالة: «من جورج الثاني ملك إنجلترا والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام.

بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أركانها الأربعة، ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبابت) على رأس بعثة من بنات أشراف إنجلترا للتشرف بلثم أهداب العرش بتقبيل أياديكم تعظيماً والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضوع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة وعطف اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخاص» من خادمكم المطيع: جورج. م. أ[١].

---

(١) من كتاب مائة قصة وقصة لمحمد أمين الجندي ص١٨٢.

○ الثبوت العقلي للرسالة المحمدية:

ما كان هذا الرجل حتى الأربعين من حياته إلا رجلاً من عامة رجال العرب، وتاجراً عادياً من تجارهم ولم يجد فيه أحد خطيباً مصقعاً يسحر الناس بنصاعة بيانه وقوة كلامه، أو حكيماً ينطق بالحكمة ويتكلم على الإلهيات وفلسفة الأخلاق والتشريع والسياسة والإدارة والاقتصاد والاجتماع أو يحرك شفته بكلمة عن الله والملائكة والكتب السماوية والأنبياء السابقين والأمم الخالية والقيامة والحياة بعد الموت والجنة والنار.

كان معروفاً في قومه بطهارة القلب وجاذبية الشمائل وسمو السيرة ونزاهة الأخلاق والأعمال، ولكن ما كان أحد قد تنبه في حياته قبل أن يبلغ أربعين سنة على شيء غير عادي، يتوقع أساسه أن يقوم بنوع من الدعوة والدعوى في المستقبل.

ولا شك كذلك أن كان الناس يجدون فيه حتى ذلك الحين رجلاً ميالاً إلى الصمت والعزلة محباً للخير والسلام، ولكن ما أعظم دهشتهم جميعاً إذ وجدوا فيه شخصاً غير شخصه لما نزل إليهم من غار حراء بعد بلوغه الأربعين وبدأ يتلوا عليهم كلاماً عجباً لم يكن لآذانهم عهد بمثله، وكان من شدة تأثيره وسرعة تملكه للأذهان والقلوب أن كان أعداؤه منهم

يخافون على أنفسهم، وكان من فصاحته وحلاوة بيانه ونصاعة أسلوبه، أن كان كبار قومه ينهون الناس عن الاستماع له ولكن كانوا هم أنفسهم يستترون ليسمعوا هذا الرجل يقرأ في بيته بالليل.

ومما لا يخفى على أحد أن هؤلاء العرب كانوا مزهوين ببلاغة كلامهم وفصاحة شعرهم وخطابتهم ولكن لما تحداهم هذا الرجل الأمي بأن يأتوا بسورة من مثل الكلام الذي يتلوه عليهم، عجزت عنه مصاقع خطبائهم، وفحول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا.

ما كان هذا الرجل ـ كما قلنا قبل ـ إلا أمياً فطرياً نشأ في بادية أمة عريقة في الجهل والهمجية منغمسة في الوثنية وعبادة الحجارة، ولم يشتغل قبل بلوغه الأربعين من حياته إلا برعي الغنم أو التجارة على عادة قومه، ولم يتح له أن يتلقى نوعاً من العلم والثقافة والتربية، ولكنا نجده يصبح حكيماً منقطع المثال وقائد للجيش عديم النظير وقاضياً ماهراً ومشرعاً مبتكراً وفيلسوفاً نطاسياً وسياسياً محنكاً ومصلحاً للأخلاق غير عادي، بعد ما نزل من الغار وشرع في دعوة قومه إلى رسالته.

وجَدَهُ قومه يأتي بِحِكَمٍ لم ينطق بمثلها أحد قبله، ولا استطاع أن ينطق بها أحد في زمانه ولا بعده، بل لم يسمعوه هو نفسه ينطق بمثلها قبل أن يبلغ الأربعين من عمره.

لقد أتى هذا الأمي الناشىء ربيب اليتم والعدم في قرية جاهلة من قرى الحجاز المقفر، بقوانين في الأخلاق والاجتماع والمعيشة والاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية وفي شؤون الحياة الإنسانية لا يدرك كنهها فحول العلماء وحذاق الحكماء على بُعد نظرهم، وخصب أذهانهم، وتجارب حياتهم إلا بشق الأنفس، ولا تزال تنكشف للدنيا حقائقها وغاياتها وأسرارها على قدر ما تزداد وتنضج أفكارها مع تعاقب الأيام والليالي.

إن هذا التاجر الصامت المحب للأمن والدعة الذي ما أمسك بيده السيف للقتال، ولا تلقى شيئاً من التربية العسكرية، ولا شهد طول حياته إلا حرباً واحدة دون أن يشترك فيها بالقتال فعلاً، وجدت فيه الدنيا دفعة واحدة محارباً شجاعاً لا يؤخر القدم في أفتك ما يكون من الحروب وأضرسها، وقائداً فتح جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها في مدة تسع سنوات، وبتنظيمه العسكري وروحه الحربية زالت على أيد

العرب العزل دولتان من أعظم دول العالم في تلك الأيام وأكثرها عدةً وعتاد في سنوات قلائل.

إن هذا الأمي الميال إلى العزلة والخلوة بنفسه الذي ما وجدت منه رائحة الشغف بالسياسة حتى أربعين سنة من حياته، وهو الذي وجد فيه قومه على حين فجأة مصلحاً فذاً ومدبراً غير مطاول، ربط في مدة ثلاث وعشرين سنة بين قبائل العرب الواغلة في الهمجية والجهل والمشاحنة والتحارب المنتشرة على وجه الصحراء تزيد على مليون ومأتي ألف ميل مربع في طولها وعرضها، وجعلها كلها تابعة لدين واحد، ومدينة واحدة، وقانون واحد، ونظام للحكومة واحد بدون أن يستعين في ذلك بالقطار أو بالبرق أو الإذاعة أو الصحافة.

غيَّر أفكارها وعاداتها وطبائعها وأخلاقها، وبدَّل همجيتها بأنضر مدينة وأرقاها، وانحلالها الخلقي بالصلاح والتقوى ومكارم الأخلاق، وتمردها وفوضاها بأحسن نظام لطاعة الأمر والتزام القانون، وجعلها وهي أمة عقيم ما أنجب صلبها منذ قرون رجلاً نابه الذكر أمة أنجبت في مدة قصيرة آلافاً مؤلفة من أعاظم الرجال وأبطالهم، سارت بذكرهم الركبان وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها يلقنون الناس

الدروس في الديانة والأخلاق والصدق والأمانة والشرف والنظام والمدنية.

ما قام هذا الرجل بكل ذلك بوسائل الظلم والإكراه والمكيدة والغش والباطل، وإنما قام به بأخلاقه الزكية الآسرة للقلوب وتعاليمه السامية الملتحمة بالأذهان، فهو بهذه الأخلاق جعل من أعدائه أصدقاء، وملك عليهم قلوبهم وأرواحهم برحمته وسعة صدره و سماحة خلقه وكرم نفسه.

ما عدل عن محجة الصدق والأمانة قط، ولا نقص لأحدٍ عهده، ولا اعتدى عليه حتى في الحرب.

وقد قامت في وجهه القوى الكسارة الجبارة، فكسر شوكتها وأذل أعناق أهلها ولكن لما انتصر عليهم لم ينتقم لذاته من أحد منهم بل غمرهم جميعاً بفضله وإكرامه وإنعامه.

وغفر لمن قتلوا منهم عمه وأخاه في الرضاعة وبقروا بطنه ولاكوا كبده، وأسبغ كساء العفو والصفح على من رموه بالحجارة وضيقوا عليه الخناق وتآمروا على قتله حتى أخرجوه من وطنه.

كان من تواضعه وزهده في حطام الدنيا وكسره لنفسه على كل ما نال من الملك العظيم أن كان لا يعيش إلا عيشة

الفقراء والمساكين ويدعو ربه: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني مع زمرة المساكين».

وكان ينام على الحصير ويكتسي الخشن ويسكن كوخاً سقفه من سعف النخيل، ويطعم القديد، بل تمرُّ عليه أيام لا يطعم فيها شيئاً، وتتجافى جنباه عن المضجع بالليل، ليقوم لعبادة ربه ويطيل فيها القيام حتى تتورم قدماه ولا يربأ بنفسه عن أن يعمل كما يعمل الأجير العادي، وما نشأت فيه إلى آخر أيامه غطرسة الملوك ولا رعونة الأمراء ولا تبختر العظماء، فكان يختلط بالناس ويعاشرهم كأنه مثلهم وواحد منهم ويشاطرهم كل ما ينزل بهم من الآلام والمصائب ويجالس عامتهم حتى ليتعذر على الأجنبي إذا دخل عليهم أن يعرف من منهم سيد القوم وملك البلاد.

وهو عندما فارق الحياة الدنيا لم يترك لآله شيئاً يرثونه عنه وجعل كل ما كان في ملكه صدقة على أمته ولم يقم لنفسه ولا لآله أدنى حق على أتباعه، بل حرم على آله أن يأخذوا شيئاً من الصدقة، خشية أن تتقدم الأيام بأتباعه فيجعلوا صدقاتهم كلها لآله.

هل ينتهي بهذا ذكر مزايا هذا الرجل ومناقبه وكمالاته؟!

الجواب: كلا، فإنك إذا نظرت نظرة شاملة في تاريخ العالم وجدت أن هذا الرجل الذي ولد قبل أربعة عشر قرناً في مكة، ونشأ على الفطرة في بادية العرب هو مؤسس العصر الحاضر، وسيد البرية، وزعيم الإنسانية في العالم كله، وأنه ليس زعيم لمن يؤمنون به ويعترفون له بالزعامة فحسب، بل هو كذلك زعيم لأولئك الذين لا يؤمنون به ولا يعترفون له بالزعامة لأنفسهم.

لا يشعر هؤلاء بأن الذي يعرضون عن إتباعه ويكذبونه ويطيلون فيه ألسنتهم بالذم والقدح قد خالط أتباعه روح عصرهم الجديد، وأثر أبلغ التأثير في أفكارهم ومبادئهم لما يأتون أو يتركون من الأعمال في الحياة.

فهو الذي قد غير مجرى تصورات الدنيا عن الأوهام والخرافات وعبودية العجائب والرهبانية إلى التعقل، وإيثار الحقيقة والدنيوية القائمة على التقوى.

وهو الذي بدل طبيعة الدنيا المطالبة بالمعجزات المادية الحسية وأنشأ فيها الذوق لفهم المعجزات العقلية، واعتبارها مقياساً للصدق والحقانية.

وهو الذي فتح عيون الباحثين عن آثار الألوهية في الأمور الخارقة للعادة، وعودهم أن يروا آيات الله الدالة على وجوده وألوهيته وتوحيده في آثار الآفاق والطبيعة.

وهو الذي صرف الناس عن الاعتماد على الرجم بالغيب، وسلك بهم طريق التعقل والتفكر والمشاهدة والتحقيق.

وهو الذي وضع يد الإنسان على ما بين العقل والحس والوجدان من الحدود، وجمع بين الروح والمادة، وبين الدين والعلم والعمل.

وهو الذي أوجد في الدنيا الروح العلمية بفضل قوة الدين والتدين الصحيح بفضل الروح العلمية.

وهو الذي انتزع جذور الشرك وعبادة الخلق للخلق، وَأَصَّلَ مكانها بقوة العلم والاعتقاد بالتوحيد، حتى اضطرت ديانات المشركين والوثنيين أنفسهم إلى أن تظهر للدنيا ولو بلمع من صبغة التوحيد.

وهو الذي غيَّر التصورات الأساسية للأخلاق والمعنوية بين الذين كانوا لا يعتقدون الأخلاق إلا في الرهبانية والإعراض عن الدنيا واضطهاد النفس وحرمانها من لذائذ

الدنيا ونعيمها وكان خارجاً من دائرة الإمكان في نظرهم أن يترقى الإنسان روحاً وينال النجاة مع أدائه ما عليه من حقوق لنفسه وجسده واشتغاله بشؤون الدنيا.

وهو الذي بيَّن لهؤلاء جميعاً طريق الأخلاق الفاضلة والارتقاء الروحي، وحصول النجاة يمر من بين مشاغل الحياة المدنية والاجتماعية والأعمال الدنيوية البحتة.

وهو الذي عَرَّف الإنسان بمنزلته وقيمته الحقيقية فالذين ما كانوا بحال يسلمون بحال لأحد بحق في هدايتهم وزعامتهم ما لم يكن ذاتاً فوق البشر أو منزلاً من الله أو ابناً له، هو الذي دلهم جميعاً على أن الإنسان مثلهم له أن يكون متدوياً إليهم من ملكوت السماء وخليفته في الدنيا لرب العالمين، والذين كانوا يتخذون كل إنسان قوي إلهاً لأنفسهم ويطأطئون له رؤوسهم.

هو الذي أرشدهم إلى أن ليس الإنسان ـ مهما كان قوياً ـ شيئاً غير الإنسان، فما من أحد قد خرج إلى الدنيا من بطن أمه بحق السيادة والحكم على الناس وما من أحد دخل الدنيا وعلى جبينه وصمة العار والنحس و المحكومية والخضوع والتذلل والعبودية.

وأن تعليم هذا الرجل، هو الذي أنشأ في الدنيا نظرية الوحدة والمساواة والجمهورية والحرية الإنسانية.

هذا وتعالوا نتجاوز الآن عن التصورات ونستعرض ما لزعامة هذا الأمي من النتائج العملية في قوانين العالم وشؤونه المختلفة المشعبة.

فكم من مبادىء الأخلاق والمدنية والحضارة والطهارة والنظافة عرضها هذا الأمي على الإنسان فانتشرت في العالم كله؟

وكم من قانون للحياة الاجتماعية أتى به هذا الأمي فحاولت ولا تزال تحاول الدنيا الاستقاء من منهله؟

وكم من حركة قد قامت ولا تزال تقوم في الدنيا على أساس ما أتى به هذا الأمي من مبادىء في الاقتصاد والمالية؟

وكم من ثورة قد حدثت ولا تزال تحدث في نظريات الدنيا السياسية على أساس ما نفذ هذا الأمي من المناهج لنظام الحكومة وإرادتها؟

وما أوسع النطاق الذي تأثرت ولا تزال تتأثر عليه نظم الدنيا للمحكمة وأفكارها القانونية بما أتى به هذا الأمي من المبادىء في العدالة والتشريع؟

ما هو إلا هذا الأمي العربي الذي نَفَّذَ في الدنيا فعلاً لأول مرة نظام الصلح والحرب والعلاقات الدولية وإلا فإن الدنيا ما كانت تعرف قبله أنه من الممكن أن يكون للحرب نظام أن تتم المعاملات بين مختلف أمم الأرض وشعوبها على أساس الإنسانية المشتركة.

إن شخصية هذا الرجل أبرز شخصية في منظر التاريخ الإنساني، حتى أنكم إذا أقمتم بجنبه جميع أولئك الذين تعدهم الإنسانية منذ بدء تاريخها إلى يومها الحاضر من الأكابر فإنهم يلوحون لكم بالنسبة لعظمته إلا أقزاماً.

ليس من أكابر الدنيا وأعظمها وعباقرتها من يجاوز لمعان عظمته وعبقريته شعبة أو شعبتين من شعب الحياة الإنسانية فمنهم من إذا كان ملكاً في النظريات فهو صعلوك في القوة العملية.

ومنهم من إذا كان رمزاً للعمل والنشاط، فإنه ضعيف الفكر.

ومنهم من إنما تنحصر عبقريته في المراوغات السياسية أو الذكاء العسكري.

ومنهم من إذا ركز نظره في ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية، توارت عنه بقية نواحيها.

ومنهم من إذا تناول بالبحث والإصلاح والأخلاق والمعنوية غاب عن فكره الاقتصاد والسياسة، وانقطع نظره عن الأخلاق والمعنوية.

كأننا إذا كنا نجد في التاريخ رجلاً من الأعاظم والعباقرة فما عظمته وعبقريته إلا من ناحية أو من ناحيتين من عدة نواحي العظمة والعبقرية، أما هذا الرجل فإنه نسيج وحده وفريد شأنه قد أحاط بجميع نواحي العبقرية والكمال والعظمة فهو نفسه الفلسفي والحكيم والمنفذ لفلسفته في الحياة العملية، وهو نفسه المدير السياسي وقائد الجيش وواضع القانون ومعلم الأخلاق ومزكي الأرواح والنفوس، يشمل نظره حياة الإنسان وينفذ إلى كل جزء من أجزائها، وهو يصدر الأحكام والتعليمات في كل ما يتعلق بحياة الإنسان من آداب الأكل والشرب والجلوس والقيام إلى العلاقات الدولية ويقرر مدينة مستقلة، وتقيم بين مختلف شعب الحياة العديدة اتزاناً صحيحاً لا إفراط فيه ولا تفريط. فهل ترى رجلاً غيره جمع بين نواحي العبقرية والعظمة مثله؟!

ليس من أشهر وأعظم رجالات التاريخ إلا في نشأته فضل ـ قليل أو كثير ـ لبيئته، أما هذا الرجل فلا ينطبق عليه هذا

رجل مزج بين الروح والمادة مزجاً معتدلاً، كان ولا يزال أكبر شاهد وأسطع برهان على حكمته وعبقريته، فهل لأحد أن يقول بعد كل هذا أن ذلك الرجل إنما كان نتيجة للبيئة العربية الجاهلية؟!

ليس هذا فقط، بل إذا تأملنا في ما جاء به هذا الرجل في حياته من جلائل الأعمال، وجدنا أنه كان غير متقيد بحدود الزمان والمكان وكان نظره يفصم قيود الوقت والأحوال، ويشق حجب القرون والآفاق ولا في كل زمان وفي كل مكان ويصده شيء عن التقدم إلى الأمام.

كان ينظر إلى الإنسان في كل زمان وفي كل مكان، ويصدر لحياته تعليمات خُلقية وعملية، تصيب الْمَحَزْ، وتعالج مشاكله بصفة متساوية في كل عصر وفي كل بيئة.

وهو ليس من الذين قد أبلاهم التاريخ، ولا نفيض عليهم الثناء اليوم إلا من حيث كانوا دعاة للخير ومحسني الإنسانية في زمانهم، بل هو ـ خلافاً لكل من سواه ـ زعيم الإنسانية ومحسنها الذي لا يدانيه غيره، يساير التاريخ وهو جديد في كل زمانه كما كان جديداً في زمان حياته.

والذين نضفي عليهم بكل سخاء ثياب المدح ويلقبون بصانعي التاريخ ليسوا في حقيقة الأمر إلا ممن قد صنعهم التاريخ.

والحق أن ليس في التاريخ الإنساني كله رجل حاشا هذا الأمي يجوز أن يقال عنه أنه صنع التاريخ، وما من أحد قد تم على يده نوع من الثورة في التاريخ الإنساني إلا وتجد ـ إذا أنت نظرت في حالاته وظروفه وبيئته ـ أن أسباب الثورة كانت بنفسها مختمرة قبل أن يقوم لإحداثها، وأن هذه الأسباب نفسها كانت تعين الوجهة لعمله، فلم يكن من بطل الثورة إلا أن أخرج مقتضى ظروف بيئته وزمانه إلى حيز الوجود ببذل جهوده وقوته، أي إنما لعب دور ممثل يكون كل من المنصة ونوعية التمثيل مقرراً متهيىء له من قبل.

أما هذا الرجل فلا نظير له أبداً بين صانعي التاريخ ومحدثي الثورات في الدنيا قديماً أو حديثاً لأنه بنفسه خلق أسباب الثورة، وأعد لها المواد الابتدائية، حيث لم يكن لها وجود، وبنفسه أعد لها الرجال الأكفاء بإذابة شخصيته العظيمة وإفراغها في قالب آلاف مؤلفة من الناس في بيئة جاهلية ما كان في أهلها روح الثورة العملية ولا النشاط الاستعداد العملي لإحداثها.

هو الذي أعد أسباب الثورة بقوة إرادته وَعَيَّنَ صورتها وتنوعها.

وهو الذي واجه الأسباب بعلو همته ومضاء عزيمته حتى غير مجراها إلى جهة أراد أن يوجهها إليها، فأنى نجد صانعاً للتاريخ ومحدثاً للثورة على مثل درجته وشأنه؟

هذا، وتعالوا نفكر الآن أي وسيلة كانت لما نشأ من العلم والنور، ورباطة الجأش، وجاذبية الشمائل، ونفوذ الكلمة، والكفاءات والكمالات، والقوى المهذبة الفائقة، دفعة واحدة في رجل أمي يرعى الغنم، أو يحترف التجارة في ناحية من أرض منحطة مظلمة كجزيرة العرب قبل أربعة عشر قرناً؟ تقولون إن كل ذلك ما كان إلا مما اختلقه هو نفسه ونبع من ذهنه وأفكاره.

وأقول أنه لو كان الأمر كذلك لكان على هذا الرجل أن يدعي الألوهية، ولو أنه ادعاها لما أبت الدنيا أن تصدقه في قولـه وتؤيده في دعـواه، إذا كانت هي التي اتخذت أمثال (رام) و(كرشن) و(بوذا) آلهة وجعلت المسيح ابن الله، وأي شيء من النار أو الماء أو الهواء أو غيرها لم يكن يعبد فيها في زمانه؟

ولكن انظروا واسمعوا ما يقول هذا الرجل عن نفسه بنفسه إنه لا يفتخر بما جاء به ولا يكسب الثناء بنسبته إلى الله الذي أكرمه به وأنزله عليه ويقول: «ما أنا إلا بشر مثلكم وكل ما عندي ليس من نفسي وإنما هو الله ومن الله وحده وما هذا الكلام الذي أتلوه عليكم وقد عجز عنه مصاقع خطبائكم وفحول شعرائكم بكلامي ولا مما نبع من ذهني وأفكاري، وإنما نزل عليَّ كل حرف منه من عند الله تعالى، فلا يستحق عليه الحمد والثناء إلا هو وحده، وهذه القوانين التي أتيت بها لحياتكم، وهذه الآداب التي علمتها إياكم، ما أنا الذي اختلقت منها شيئاً ممكناً تلقاء نفسي، ولا أقدر عليه، وأنا فقير إلى هدى الله تعالى ورحمته وفضله في كل شأن من شؤون حياتي ولا أقول ولا أعمل إلا ما أتلقاه من عند الله سبحانه وتعالى».

انظر إلى مبلغ هذا الرجل من الصدق والأمانة والتقوى، يحاول الكاذب أن ينسب إلى نفسه محاسن غيره مع أنه من الممكن أن يعرف مصدرها بكل سهولة، أما هذا الرجل فلا ينسب إلى نفسه محاسن لو نسبها إلى نفسه لما استطاع أحد أن يكذبه لأنه لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف مصدرها الحقيقي.

فأي دليل أقوى من ذلك على صدق هذا الرجل؟ ينال في نفسه كمالات منقطعة المثال بوسيلة خافية، ثم يبين للناس بدون تلكؤ ولا تحرج مصدرها.

قولوا بالله ما لنا ـ بعد كل هذا ـ ألا نصدقه في ما يقول؟ انتهى[1].

○ أسباب ارتقاء المسلمين:

«إن أسباب ارتقاء المسلمين كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية فعندما دانت قبائل العرب بديانة الإسلام تحولوا بها من الفرقة إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف»[2] شكيب أرسلان.

---

(١) من مجلة دعوة الحق، وهو للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بالباكستان.

(٢) مجلة دعوة الحق كذلك.

○ بشارة يهودي بمكة ببعثة النبي ﷺ[1]:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس من قريش: «يا معشر قريش! هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله لا نعلمه. قال: الله أكبر أما إذا أخطأتم فلا بأس انظروا واحفظوا ما أقول لكم: ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، لا يرضع ليلتين وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل إصبعه في فمه فمنعه الرضاع.

فتصدع القوم من مجلسهم وهم متعجبون من قوله وحديثه، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان أهله فقالوا قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً.

فالتقى القوم فقالوا هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي فأخبروه الخبر.

قال: فاذهبوا معي أنظر إليه. فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة. فقال: أخرجيه إلينا. فأخرجته وكشفوا له ظهره

---

(١) من كتاب موسوعة سيرة سيد الأنام ج١ ص٤٥١.

فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك مالك؟ قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل فرحتم به يا معشر قريش.

أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب.

وكان في النفر يومئذ الذين قال لهم اليهودي ما قال هشام ابن الوليد بن المغيرة بن أبي عمرو، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وعتبة بن ربيعة في نفر من بني عبد مناف وغيرهم من قريش[١].

○ رسول الله ﷺ في نظر المنصفين:

لقد كتب عن نبينا محمد ﷺ بإنصاف كثير من الفلاسفة والمستشرقين ومن هؤلاء:

○ بوزورث سميث:

حيث يقول: «إن محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق».

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٥٧.

○ هنري الفرنسي:

يقول هنري في معرض الاستدلال على صدق رسالة سيدنا محمد ﷺ: «لسنا نحتاج في إثبات صدقه إلى أكثر مما يأتي:

أ ـ كان محمد أمياً لا يقرأ ولا يكتب وهذا الوصف لم يعارض فيه أحد.

ب ـ إنه لم يسترشد في دينه بمرشد يتقدمه.

جـ ـ وإنه كان بنفر من عبادة الأوثان وتعدد الآلهة وكان يعرف بوجدانه الواحد الأحد لما اعتكف وحده في غار حراء.

د ـ ومع كونه أمياً فقد كان معه قرآن يعجز فكر البشر عن الإتيان بمثله لفظاً ومعنى.

هـ ـ لما قرأ جعفر بن أبي طالب ما جاء في القرآن عن (زكريا ويحيى) على النجاشي فاضت عيناه بالدموع وفي اليوم التالي طلب منه أن يقرأ ما جاء في المسيح ففعل فاستغرب الملك لما علم أن المسيح عبد الله ورسوله فآمن بمحمد وما جاء به.

و ـ وأن محمد أتى بالقرآن دليلاً على صدق رسالته وهذا الكتاب سر من الأسرار لا يدركه إلا من صدق بأنه من عند الله.

ز ـ إنه كان لا يميل إلى الزخارف والاستكبار والبخل فقد كان يحلب شاته بنفسه، ويجلس على التراب ويرقع نعله بيده ﷺ وكان قنوعاً. ولقد خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز البر ولم تكن له حاشية ولا وزير ولا حشم ولم يرغب طوال حياته في المال، وكان كل ما يأتيه يتصدق به، وبلغ من السلطان غايته إلى غير ذلك من الحقائق التي ذكرها هذا المنصف بلا تشويه.

○ برناردشو:

يقول برناردشو: «إن الإسلام دين يستحق الاحترام والإجلال، لأنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، وهو خالد خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي من العلماء قد دخلوا هذا الدين على بيِّنة من أمرهم، وفي المستقبل سيجد هذا الدين مجاله الفسيح في كل أنحاء أوروبا، ولقد درست سيرة محمد ﷺ فوجدته بعيداً عن مخاصمة المسيح ويمكن بحق أن نعتبر محمداً منقذاً للإنسانية، وأعتقد أن رجلاً مثله لو حكم العالم بأسره لجلب للعالم السلام والسعادة وقد برهن الإسلام من ساعته الأولى أنه دين الأجناس جميعاً، إذ ضم سلمان الفارسي و بلال الحبشي وصهيب الرومي كما

اعتنقته مجموعات من النصارى واليهود وعبدة الأوثان وانصهر الجميع في بوتقة واحدة دون فروق على الإطلاق ولم يحس أي منهم أنه غريب عن هذا الدين وبعد فترة اتصل هذا الدين بأجناس متعددة بينها الأسود والأصفر والأبيض، وكانوا جميعاً في رحاب متساوين سعداء.

○ السير توماس آرنولد:

ألف ذلك العلامة كتاباً سماه (الدعوة إلى الإسلام) وفيه يسوق الأدلة والبراهين على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف كما زعم أعداؤه ومن هذه البراهين:

١ ـ إسلام بعض الصليبيين قبل موقعة حطين أي قبل انكسار شوكتهم في هذه المعركة، بل كانوا في أوج قوتهم مما يدل على أنهم أسلموا عن طريق الإقتناع، الذي هو الطريق إلى الإسلام دائماً.

٢ ـ إسلام المغول في وقت كانوا فيه المتغلبين على العرب.

٣ ـ انتشار الإسلام في الملايو وأندونيسيا والفليبين دون أن تطأ هذه البلاد قدم جندي عربي واحد ولكن عن طريق

التجار وغيرهم وذلك عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة فأي سيف كان يجبر هؤلاء الصليبين العتاة وهؤلاء المغول الجبابرة على دخول الإسلام؟!

ولكن كل ما نقوله: أن الذي جعلهم يسلمون هو سماحة الإسلام وعظمته، وهذا بجانب أن الله سبحانه وتعالى ينهى عن استعمال الشدة في نشر الدين تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكما يقول تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، أما استخدام السيف فلا مجال له في نشر الدين اللهم إلا في حالة الدفاع عنه فهذا أمر واجب يقره العقل قبل الدين.

○ الإسلام والحضارة:

يوضح الأستاذ جورج سارلمون أن الإسلام شجع الفكر الحضاري في العلوم التجريبية في حين وقفت المسيحية ضد هذا الفكر.

فابن النفيس قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يعرف ميخائيل سرفيت الأسباني ذلك بمائتين وخمسين عاماً ولقد عرف المسلمون فضل ابن النفيس لكن سرفيت أحرق علناً في جنيف عام ١٥٥٣م.

أما التشريح فقد كان في أوروبا ممنوعاً ألبتة، ولكن صناعة التشريح بلغت أعظم مدىً في المشافي الإسلامية، وما يقال عن التشريح يقال عن أمراض العين فإن المسلمين كانوا حتى القرن الثالث عشر رواد العالم في أمراض العيون.

وعن مدى الفائدة التي عادت على الغرب من ترجمة الفكر الإسلامي يقول روجيه غارودي: أن نهضة الغرب لم تبدأ من إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية والرومانية بل بدأت في أسبانيا مع إشعاع العلم والثقافة الإسلامية والعربية، والنهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية الإسلامية سوى المنهج التجريبي والقوانين العلمية وتركت الإيمان الذي يوجهها نحو الإلـه ويسخرها لخدمة البشرية.

○ رأي الميسو رينيه في الإسلام:

يقول الفنان الكبير الميسو رينيه الرسام الفرنسي بعد أن أسلم وسمى نفسه باسم (صلاح الدين): «إن العقيدة الإسلامية

لا تقف عثرة في سبيل الفكر وأن الإسلام صالح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس وهو صالح كذلك لكل أنواع العقيدة وجميع درجات المدنيات، وهو كما يبهج الرجل العلمي في لندن مثلاً فإنه يأخذ بلب الفيلسوف الروماني، كما يتقبله الشرقي صاحب الخيال الشعري في السماء والماء وضوء القمر وهدوء السحر والصحراء والزرع والشجر، كما يأخذ بمجامع المفكر الغربي الذي عكف على الإبداع في الفن ورسم الصور الرائعة في الشعر والنثر.

فكم من فيلسوف وقسيس ومصور وشاعر وطبيب وصيدلي ومحام وسياسي في الشرق والغرب قرؤوا عن الإسلام فبهرهم واستحوذ عليهم تناسقه مع الفطرة، وجذبتهم إليه عقائده وعباداته فآمنوا به راغبين راسخين لا رهبة بل إقتناعاً عميقاً وحباً فهوا الرحيق السائغ والمنطق السليم والمنهج السليم».

○ جوستاف لوبون:

يقول هذا المفكر: «إن للإسلام وحده الفخار بأنه أول دين قال بالتوحيد المحض الخالص، وبأنه أول دين نشر أتباعه ذلك التوحيد في أنحاء العالم، فالإلـه الواحد المطلق

الذي دعا إليه الإسلام منزه عن شريك له، ونشتق سهولة الإسلام من التوحيد الخالص، وفي التوحيد سر قوة الإسلام، وهو من أكثر الديانات ملائمة لمناخ العالم واكتشافاته، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس ودعوة إلى العدل وإلى التسامح، وفي الحقيقة أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب.

فالإسلام هو الذي أعطى الفاتحين هذه الرحمة وهذا التسامح».

○ الكاتب الإنجليزي الشهير الأشهر توماس كارليل:

يقول هذا الكاتب في كتابه (الأبطال): «لقد أصبح من أكبر العار على أي متدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى أناس حاقدين كاذبين على محمد، وآن لنا أن نحارب مزاعمهم السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مأتي مليون من الناس بعد المليار نسمة خلقهم الله كخلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها الملايين وماتت عليها أكذوبة وخدعة؟!

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ولو أن الكذب والغش يروجان عند الخلق في الناس المجانين، ولو كانت الحياة مجرد سخف وعبث وأضلولة لكان الأولى بها ألا تخلق».

ثم قال : «والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير والتراب وما شاكلهما فما الذي يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض لا يستطيع أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً من الزمان، يسكنه الآن مائتا مليون مسلم بعد المليار.

○ ول ديورانت صاحب (قصة الحضارة):

كتب مجلداً كاملاً عن الحضارة الإسلامية وقد نظر إلى أمر النبي ﷺ في المجتمعات التي آمنت به وفي تواضعه الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً فيقول: «إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس لقلنا أن محمداً كان أعظم عظماء التاريخ فقد رفع المستوى الروحي للوفاء والإخلاص من بعد أن ألقت به في ظلمات الهمجية حرارة الصحراء وجدبها وقد نجح محمد برسالته في ذلك نجاحاً عظيماً لم يدانيه أحد على مدى التاريخ لقد كبح محمد جماح

التعصب، وقضى على الخرافات واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشىء دولة عظمى، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم، لم يتظاهر محمد قط بأبهة السلطان، بل كان يرفض إن وجه إليه شيء من التعظيم والتبجيل، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ولا يطلب من عبد أن يقوم له بعمل يجد له لديه من القوة والوقت ما يمكنه عمله، لم يكن ينفق على أسرته من المال إلا القليل رغم ما كان يرد إليه من الفيء الكثير، أما ما ينفقه على نفسه فكان أقل القليل وكان يخص الصدقات بالجزء الأكثر من هذا المال.

○ الكاتب الهندي ميهاتا صاحب كتاب (الحضارة الهندية والإسلام):

يقول: إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدني وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الاقتصاد والأفكار أعظم وأوسع منها في حقل السياسة، شأنه شأن الأقطار الأخرى، ولقد كان من

سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر الهندي مرتبطاً بالحكومات فبقيت حقيقة الاسم في حجاب، وبقيت عبادته مختفية عن الأنظار.

○ ميشيل هرت وكتابه المائة الأوائل وأعظمهم محمد:

يقول: «إن اختياري لمحمد ليكون الأول بين ذوي النفوذ المؤثرين في العالم قد يدهش بعض القراء ويصير مثار تساؤلات من البقية، ولكن هو الوحيد في التاريخ الذي كان امتيازه متكافئاً على المستوى الديني والدنيوي، وبأصول متواضعة أسس محمد ديانة من ديانات العالم العظيمة، وأصبح زعيماً سياسياً، ورغم مرور أكثر من ١٣ قرناً لا يزال نفوذه الديني والسياسي عميقاً ومستمراً».

ثم يقول مبرزاً سبباً آخر من أسباب اختياره نبي الإسلام ليكون الأول: «أن معظم الذين غيروا التاريخ ظهروا في قلب أحد المراكز الحضارية في العالم في بيئة متمدينة تبرز ظهور العظماء فيها، ولكن محمد هو الوحيد الذي نشأ في بقعة من الصحراء الجرداء المجردة تماماً من كل مقومات الحضارة والتقدم، ولكنه جعل من البدو البسطاء المتحاربين قوة معنوية هائلة قهرت بعد ذلك إمبراطوريات فارس وبيزنطة

وروما المتقدمة بما يقاس في تاريخ الغزو، ففي كل زمان ومكان يكون الغزو عسكرياً ولكن في حالة الرسالة المحمدية فإن معظم البلاد التي فتحها خلفاؤه استعربت تماماً وتغيرت لغة وديناً وقومية، من العراق وسورية إلى آخر الشاطىء الأفريقي غرباً إلى السودان جنوباً، وأصبحت أمة واحدة تتكلم بلسان واحد إلى الآن، فهناك اليوم بعد ألف وأربعمائة سنة أكثر من مليار مسلم، من بينهم حوالي مائة وخمسين مليون عربي، وهو معيار قياس أمد الرسالة ـ إلى جانب استمرارها الزمني ـ بثبات ليس له مثيل في تاريخ الفتح الإسلامي في العالم، كذلك لا يوجد نص في تاريخ الرسالات نقل وبقي بحروفه كاملاً دون تحريف كل هذا الزمن سوى القرآن، الذي نقله محمد الأمر الذي لا ينطبق على التوراة مثلاً أو الإنجيل.

هكذا نجد فتوحات العرب التي بدأت في القرن السابع الميلادي قد بقيت تلعب دوراً مهماً في تاريخ الإنسانية حتى يومنا هذا، ومن أجل هذا النفوذ الديني والدنيوي، فإنني وجدت أن محمداً هو صاحب الحق الوحيد في أن أعتبره صاحب أعظم أثر على الإطلاق في التاريخ الإنساني».

وبعد. فهل آن للبشرية أن تعرف طريقها الحق في المجتمع الأمثل الذي لا يوجد إلا في إطار الإسلام، والإنسان حين ينظر إلى المجتمع المعاصر ويجد الصراعات المختلفة التي تدور في سائر أرجاء الأرض من قتل ونهب ونهش أعراض، فلا بد أن يعلم أن المنهج الإسلامي هو المنهج القادر وحده على العطاء، لأنه قائم في أساسه على الإيمان، ذلك الإيمان الذي يولد الحب والرحمة والعدل والحرية في كل الأمم والشعوب، ولا يفرق بين طوائف الشعوب والبشر».

ولقد لفت نظر برناردشو أسلوب حل المشكلات الذي يتميز به رسول الله ﷺ فلم يملك نفسه إلا أن قال ـ وهو غير مسلم ـ: «لو أن محمداً رسول الإسلام وُجِدَ وسط هذا العالم المليء بالمشكلات والصراعات لاستطاع أن يحل مشكلات العالم وهو جالس يحتسي فنجاناً من القهوة!!».

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣][١].

---

(١) من مجلة منار الإسلام العدد ٣٥١ السنة الثلاثون ـ ربيع أول ١٤٢٥هـ ـ إبريل ٢٠٠٤م ص٢٦-٢٩.

○ **قال نورمان دانيال:**

إن محمداً كان عالما في العديد من العلوم والمعارف فكان ضليعاً في علم البيان والحساب والمنطق والهندسة والرياضيات، فكان عالماً في اللغويات ولولا هذا ما اضطر علماء الغرب إلى اللجوء إلى تراث محمد يأخذون منه ما أثرى الفكر الغربي، وما جعل هؤلاء العلماء يقدرون العلوم الإسلامية حق قدرها.

○ **المستشرقون المعتدلون:**

لا نكران أن طائفة من المستشرقين اتسموا بالاعتدال والإنصاف على تفاوت فيما بينهم، فمنهم من أخطأ أو أصاب ومنهم من انتهى به البحث الحر النزيه إلى الإيمان والإسلام...

ويعتبر من الفريق الأول: (رينان) الذي أقر بأن سيرة الرسول ﷺ لها ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل المتداولة بين النصارى.

ومنهم (كارلايل) الذي عد سيدنا محمد ﷺ في الأبطال، وخصه بصفحات كثيرة من كتابه (الأبطال).

○ عاقبة المكذبين:

أراد حرق المصحف فاحترقت يده:

نشرت جريدة (ترنيم) النيجيرية الواسعة الانتشار، خبراً لا يزال حديث الناس في نيجيريا بأسرها، زلزل معقلاً من معاقل المسيحية في ولاية كنجولا النيجيرية...

والخبر يقول: وقف القس ولبرفورس راعي كنيسة المدينة وبيده مصحف كان قد جذبه من بين يدي أحد الحاضرين ثم ألقى به على الأرض وسكب عليه مقداراً من البنزين وهم بإشعال عود ثقاب على المصحف... فأصيبت يده بحروق شديدة ولم تمس النار المصحف الشريف، وكان الحاضرون يتابعون هذا المشهد، وهم في ذهول حيث جرى ذلك أثناء قداس في الكنيسة، وعقب هذا الحادث مباشرة أعلن القس فروس دخوله في الإسلام وتبعه رئيس الكنيسة وتوالى دخول المبشرين في الإسلام حتى بلغ عددهم ٢٠٠ مبشر.

○ هلاك المستهزىء بالقرآن:

لقي واحد من المستهزئين بالقرآن مصرعه في رأس السنة الميلادية في قرية تسمى موب من ولاية غونغوكي شمال نيجيريا.

كان عمر غيمو واعظاً مسيحياً وكان من المكذبين بالقرآن الكريم والمستهزئين بدين الإسلام، وقف واعظاً بين لفيف من المسيحيين حيث قال مستهزئاً ومتحدياً: إن كان القرآن والدين الإسلامي حقاً «يسأل الله أن لا يرجع إلى بيته حياً»، قال هذا وهو يعظ الناس في الكنيسة بابتيس[١].

○ آنا ماري شيمل والحضارة الإسلامية:

لا يكاد امرىء يتحدث عن المستشرقين في أوروبا بعامة وفي ألمانيا بخاصة إلا ويذكر معها العالمة «آنا ماري شيمل» وذلك لشغفها الشديد بالعرب والمسلمين وحضارتهم، فلقد انصب اهتمامها على اللغة العربية والحضارة الإسلامية والقرآن الكريم وأعلام التصوف الإسلامي، واشتهرت بإنصافها للإسلام وبتواصلها الإيجابي وبالحوار بين الشرق والغرب، وقد أعجبت بشخصية النبي محمد ﷺ وكانت تراه أنه عظيم من العظماء وبأنه رسول وله معجزة عظيمة وهي القرآن الكريم وهو الدليل القاطع على صحة نبوته ﷺ.

---

(١) من كتاب مائة قصة وقصة في أنيس الصالحين وسمير المتقين لمحمد أمين الجندي ص٢٩.

○ آرنولد تونبي:

يقول ـ أرنولد تونبي ـ في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» عند الحديث عن انتشار الإسلام بين مسيحيي أفريقيا وهو يقصد مصر: «ليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن دخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط بل لقد تحـول كثير من القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح».

○ روبرت بريفانت:

يقول ـ روبرت بريفانت ـ في كتابه (تكوين الإنسانية): «ولم يكن العلم فقط باعث الحياة في أوروبا بل الآثار الكثيرة الأخرى من الحضارة الإسلامية أفاضت إشراقها الأول على حياة تلك القارة، أقول: إن الإسلام دين الفكر حتى ليسمى أهل الرأي «أصحاب النظر» وبعد: فقد كان الرسول صاحب الذكرى صادقاً أميناً، تملّك الدنيا حاضراً وراحلاً لا يغيب.

كان زاهداً يعرف أن غنى الإنسان بما يحتويه لا بما يقتنيه، وقد ضمنت جوانحه على كنوز من القيم والمعاني والسلوك، كان متواضعاً والتواضع قمة الكبرياء، كان صاحب رسالة وكان على خلق عظيم، ومن أجل هذا كان إماماً وكان علامة

على طريق طويل له لأبعاد شتى، ولم يغنم لنفسه ملكاً وباسمه عاش الملوك، «بوركت يا رسول الله وبوركت ذكراك».

وقد قرأت منذ مدة طويلة مقالاً طويلاً في مجلة لبنانية مسيحية تسأل قرائها: من هو أعظم رجل ظهر في العالم؟

فأجاب أحد القراء وهو مسيحي أيضاً بقوله:

إن أعظم رجل ظهر في العالم هو ذلك الرجل الذي وضع في عشر سنين ديناً وفلسفة وقوانين مدنية واجتماعية وَغَيَّرَ شريعة الحرب، وأنشأ أمة ودولة طاولت الدهر.

وجعل لأمته كل ما تحتاج لبنائها وازدهارها وتقدمها فجعل مؤتمراً يعقد في كل أسبوع لكل مدينة لعرض وحل مشاكل البلد وهو الجمعة، وجعل مؤتمراً عام يعقد سنوياً في عرفات ليتعاونوا ويتعارفوا ويتزاوروا فيه، وفرض على الأغنياء الزكاة بحيث لو أدها المسلمون لما بقي فيهم فقير، ألا وهو محمد بن عبد الله...»

والمقال طويل وفيه الكثير من الكلام لكن هذا ملخص مختصر منه ولكني نسيت أكثره.

والله الموفق

الفهرس